

مقهوراً، وكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه .

وأنا ب .

ووجدته تعالى وقهره متلازمان ، فالواحد لا يكون إلا قهاراً ، والقهار لا يكون إلا واحداً ، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه .

٥٥ - ٧ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطْنٍ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ لِيَكُونَ لِلدُّنْيَا لُطْفٌ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾

ومن عزته أن ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ على كثرتكم وانتشاركم ، في أنحاء الأرض ، ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ وذلك ليسكن إليها وتسكن إليه ، وتم بذلك النعمة . ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ﴾ أي : خلقها بقدر نازل منه ، رحمة بكم . ﴿ ثمانية أزواج ﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ .

وخصها بالذكر ، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها ، لكثرة نفعها ، وعموم مصالحها ، ولشرفها ، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها ، كالأضحية والهدي والعقيقة ، ووجوب الزكاة فيها ، واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أبنائنا وأمتنا ، ذكر ابتداء خلقنا ، فقال : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطْنٍ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ أي : طوراً بعد طور ، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسك ، ولا عين تنظر إليكم ، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ ظلمة البطن ، ثم ظلمة الرحم ، ثم ظلمة المشيمة ، ﴿ ذلكم ﴾ الذي خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿ الله ربكم ﴾ أي : المألوه المعبود ، الذي رباكم وديركم ، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك ، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له ، ولهذا قال : ﴿ لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان ، التي لا تدبر شيئاً ، وليس لها من الأمر شيء .

﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ لا يضره كفركم ، كما لا ينتفع بطاعتكم ، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم . ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ لكمال إحسانه بهم ،

ووجدته تعالى وقهره متلازمان ، فالواحد لا يكون إلا قهاراً ، والقهار لا يكون إلا واحداً ، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه .

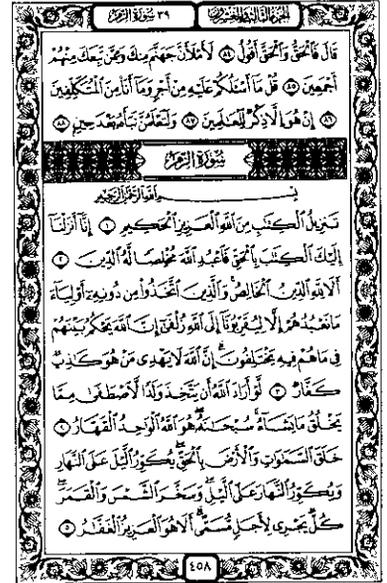
٥٥ - ٧ ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بَطْنٍ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمَّهَاتِكُمْ لِيَكُونَ لِلدُّنْيَا لُطْفٌ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴾

ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴿ يخبر تعالى أنه ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي : بالحكمة والمصلحة ، وليأمر العباد وينهاهم ، ويبيهم ويعاقبهم .

﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ أي : يدخل كلاً منهما على الآخر ، ويجعله عمله ، فلا يجتمع هذا وهذا ، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه .

﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ بتسخير منظم ، وسير مقنن . ﴿ كل من الشمس والقمر ﴾ يجري متأثراً عن تسخيره تعالى ﴿ لأجل مسمى ﴾ وهو انقضاء هذه الساعات وخربها ، فيخرب الله آلتها وشمسها وقمرها ، وينشئ الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار ، الجنة أو النار .

﴿ ألا هو العزيز ﴾ الذي لا يغالب ، القاهر لكل شيء ، الذي لا يستعصي عليه شيء ، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات العظيمة ، وسخرها تجري بأمره . ﴿ الغفار ﴾ لذنوب عباده التوابين المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ . الغفار لمن أشرك به بعدما



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار . ﴿ إن الله لا يهدي ﴾ أي : لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿ من هو كاذب كفار ﴾ أي : وصفه الكذب أو الكفر ، بحيث تأتيه المواعظ والآيات ، ولا يزول عنه ما اتصف به ، ويريه الله الآيات ، فيجحدتها ويكفر بها ويكذب ، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب ، وعوقب بأن طبع الله على قلبه ، فهو لا يؤمن !!

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴾ لا يصطفى ما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿ أي : لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴾ كما زعم ذلك من زعمه ، من سفهاء الخلق . ﴿ لا يصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أي : لا يصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه ، واختصه لنفسه ، وجعله بمنزلة الولد ، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ صاحبة . ﴿ سبحانه ﴾ عما ظنه به الكافرون ، أو نسبه إليه الملحدون . ﴿ هو الله الواحد القهار ﴾ أي : الواحد في ذاته ، وفي أسمائه ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فلا شبهة له في شيء من ذلك ، ولا مماثل ، فلو كان له ولد ، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته ، لأنه بعضه ، وجزء منه .

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي ، فلو كان له ولد لم يكن

فأتى بالملزوم ليدل على اللازم .

﴿قل﴾ لهذا العاني، الذي بدّل نعمة الله كفرة: ﴿تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ فلا يغنيك ما تتمتع به إذا كان المال النار .

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ .

﴿٩﴾ ﴿أمن هو قانت أثناء الليل ساجداً قائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علماً يقيناً تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء، رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن .

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿والذين لا يعلمون﴾ شيئاً من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار .

﴿إنما يتذكر﴾ إذا ذكروا ﴿أولو الألباب﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته، لأن لهم عقولاً ترشدهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إلهه هواه .

﴿١٠﴾ ﴿قل يا عباد الذي آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى

وعلمه أن الكفر يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعو ما خلقهم لأجله .

﴿وإن تشكروا﴾ لله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له ﴿يرضه لكم﴾ لرحمته بكم، ومحبه للإحسان عليكم، ولفعلكم ما خلقكم لأجله .

وكما أنه لا يتضرر بشرككم، ولا ينتفع بأعمالكم وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله، من خير وشر ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنبشكم بما كنتم تعملون﴾ إخباراً أحاط به علمه، وجرى عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم الجوارح، فيجازي كلاً منكم ما يستحقه .

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها من وصف برٍّ أو فجور، والمقصود من هذا، الإخبار بالجزاء بالعدل التام .

﴿٨﴾ ﴿وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه نيبياً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾ بخير تعالى عن كرمه بعبدته وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين يمسه الضر، من مرض أو فقر، أو وقوع في كربة تخر أو غيره، أنه يعلم أنه لا ينجي في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعاً نيبياً، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك .

﴿ثم إذا خوله﴾ الله ﴿نعمة منه﴾ بأن كشف ما به من الضر والكربة، ﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ أي: نسي ذلك الضر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه .

﴿وجعل الله أنداداً ليضل عن سبيله﴾ أي: ليضل بنفسه، ويضل غيره، لأن الإضلال فرع عن الضلال،



الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، أمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم، المقتضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى، كما تقول: أيها الكريم تصدق، وأيها الشجاع قاتل .

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا﴾ بعبادة ربهم لهم ﴿حسنة﴾ وورق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ .

﴿وأرض الله واسعة﴾ إذا تمتع من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم، وتتمكنون من إقامة دينكم .

ولما قال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك، دفع هذا الظن بقوله: ﴿وأرض الله واسعة﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على

عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحشهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغب تشاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذّروهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧ - ١٨﴾ **«والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب»** لما ذكر حال المجرمين ذكر حال النبيين وثوابهم، فقال: **«والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها»** والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن الملاح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

«وانابوا إلى الله» بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، **«لهم البشري»** التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشري في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه يريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشري في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشري ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانته في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشري، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: **«فبشر عباد * الذين يستمعون القول»** وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة

فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون **«أي: «قل»** يا أيها الرسول للناس: **«إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين»** في قوله في أول السورة: **«فابعبد الله مخلصاً له الدين»**

«وأمرت أن أكون أول المسلمين» لأن الداعي الهادي للمخلق إلى ربه، فيقتضي أني أول من اتهم بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

«قل إنى أخاف إن عصيت ربي» في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. **«عذاب يوم عظيم»** يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. **«قل الله أعبد مخلصاً له ديني»** فاعبدوا ما شئتم من دونه، كما قال تعالى: **«قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين»**

«قل إن الخاسرين» حقيقة هم **«الذين خسروا أنفسهم»** حيث حرموا الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب **«وأهلهم يوم القيامة»** أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. **«إلا ذلك هو الخسران المبين»** الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: **«لهم من فوقهم ظلل من النار»** أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم **«ومن تحتهم ظلل»**

«ذلك» الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحته، **«بخوف الله به عباده، يا عباد فاتقون»** أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو



الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتهم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

«إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعده الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١ - ١٦﴾ **«قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت أن أكون أول المسلمين * قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة إلا ذلك هو الخسران المبين * لهم من**

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذروهم من العمالة.

ما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء المدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وأولئك هم أولو الألباب﴾ أي: العقول الزاكية.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إثاره على ما سواه، وهذا علامة للعقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنقذ من في النار لا محالة، لكن الغنى كل الغنى، والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقادر قدره.

﴿لهم غرف﴾ أي: منازل عالية

مزخرقة، من حسنها وبهاؤها وصفاتها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها، [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتقل بأنواع الثمار اللذيذة والفاكهة النضيجة.

﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفيهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه نفسك في الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يسبحه فتراه مصفرا ثم يجعله حطابا إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكر تعالى أولي الألباب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعا يستخرج بسهولة ويسر، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه من بر وذررة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثم يسبح﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فتراه مصفرا ثم يجعله حطابا﴾ متكسرا ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وحزنه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الألباب، الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبتدبير آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿٢٢﴾ ﴿أفمن شرح الله صدره

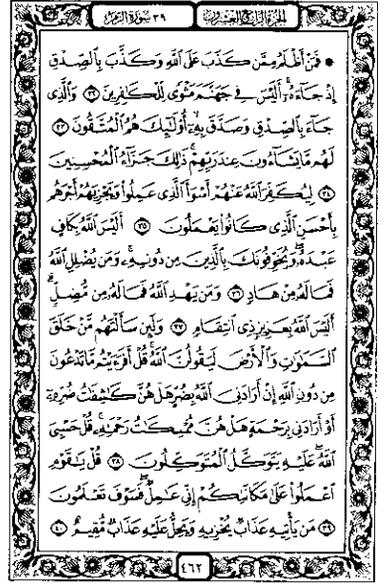
﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلودهم الذين يمشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزل أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه

للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ أي: أفستوي من شرح الله صدره للإسلام، فاتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشراحاً قلوب العين، على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿قويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي: لا تلين لكتابته، ولا تتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهو لاهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه.



﴿٢٤ - ٢٦﴾ ﴿أمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾ * كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون * فأذقهم الله الحزني في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ أي: أقيستوي هذا الذي هداه الله، ووقفه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه، فهو يتقي فيه سوء العذاب لأنه قد غلّت يده ورجلاه، ﴿وقيل للظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي، توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتم تكسبون﴾

﴿كذب الذين من قبلهم﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء، ﴿فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ جاءهم في غفلة أول نهار، أو هم قائلون، ﴿فأذقهم الله﴾ بذلك العذاب ﴿الحزني في الحياة الدنيا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

﴿٢٧ - ٣١﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون﴾ قرآنًا عربيًا غير ذي عوج لعلمهم يتقون * ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لعلمهم يتذكرون﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون ويعملون.

﴿قرآنًا عربيًا غير ذي عوج﴾ أي: جعلناه قرآنًا عربيًا، واضح الألفاظ،

الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بُدع عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأنمرت أنواع الثمار الناعمة، فكذلك القلب يحتاج دائماً إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقفاً، ولم تحصل النتيجة منه، ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن، التدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه، فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلهذا قال تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب، فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذلك﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هدى الله﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يهدي به﴾ أي: بسبب ذلك ﴿من يشاء﴾ من عباده. ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذلك﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هدى الله﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ عن حسن قصده، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾. ﴿ومن يضل الله فما له من هادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المين والشقاء.

أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه، أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهاً في الحسن والانتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره التدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاهه، حتى في معانيه الغامضة، ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالمشابه في هذا الموضوع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فالمراد بها، التي تشبه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ فجعل التشابه لبعضه، وهنا جعله كله متشابهاً، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أحسن الحديث﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضاً كما ذكرنا.

﴿مشاني﴾ أي: تشنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتشنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه الزكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقي



والتصديق به .

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر . فكل ما تعلق به إرادتهم ومشيئتهم، من أصناف اللذات والمشتهيات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، ﴿ذلك جزاء المحسنين﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراههم ﴿المحسنين﴾ إلى عباد الله .

﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات :

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن .

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فهذا التفصيل يبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، ﴿ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ أي: بحسناتهم كلها . وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً .

سهل المعاني، خصوصاً على العرب .
﴿غير ذي عوج﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ قياً .

﴿تعلمهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل . ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾ أي: عبداً ﴿فيه شركاء متشاكسون﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحتته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟
﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة . هل يستويان؟ أي: هذان الرجلان ﴿مثلاً﴾؟ لا يستويان . كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف ﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال . ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾

﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذيبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلاماً على ظلم .
﴿اليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر . ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ .

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: ﴿والذي جاء بالصدق﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق .

﴿وصدق به﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره .

﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هم المتقون﴾ فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق

﴿تعلمهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل . ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾ أي: عبداً ﴿فيه شركاء متشاكسون﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحتته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة . هل يستويان؟ أي: هذان الرجلان ﴿مثلاً﴾؟ لا يستويان . كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، ف ﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال . ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾

﴿إنك ميتٌ وإنهم ميتون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ .

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويجازي كلأما عمله ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ .

﴿٣٢ - ٣٥﴾ ﴿فمن أظلم ممن

(١) في النسختين: أو كذب بالحق لما جاءه .

الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيته، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بنوره واتباع أوامره ﴿وَإِن نَفَعُ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ فَصَلُّوا عَلَيْهِمْ﴾ بعد ما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا﴾ لا يضر الله شيئاً. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

﴿٤٢﴾ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسْكُ الْيَوْمِ الَّذِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه، لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴿لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته أن يجعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها، ﴿فِي مَسْكٍ﴾ من هاتين التفسيرين النفس التي قضى عليها الموت وهي نفس

أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يشبوا لألهمتهم من خلقها شيئاً. ﴿لِيَقُولَنَّ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهَا وَحْدَهُ. قُلْ﴾ لهم مقرأ أعجز آلهمتهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ما تدعون من دون الله إن أردني الله بضرٍ أي ضرر كان.

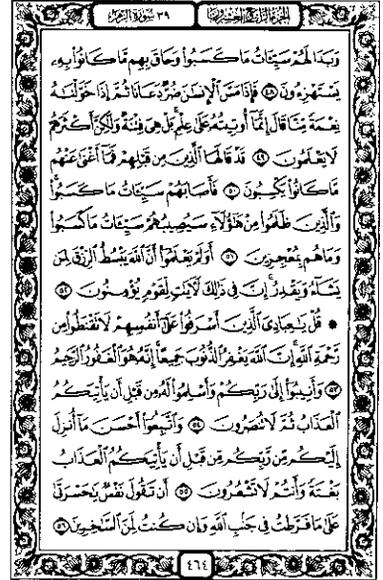
﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ سُوءِ﴾ بإزالتها بالكلية، أو تخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادِي بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي. ﴿هَلْ هُنَّ مَسْكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهتم به.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذاب مجزيه ويحل عليه عذاب مقيم: أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيء.

﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة و ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُّجْزِيهٌ﴾ في الدنيا، ﴿وَيُحَلُّ عَلَيْهِ﴾ في الأخرى ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول، وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن



﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ

عبدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أي: أليس من كرمه وجوده، وعنايته بعبد، الذي قام بعبوديته، وامتنل أمره واجتنب نهيته، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من ناواه بسوء.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من عيهم وضلالهم.

﴿وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرهم. ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فأحذروا موجبات نقمته.

﴿٣٨﴾ ﴿وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ سُوءِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

بقوله: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ يصهره به ما في بطونهم والجلود ﴾ ولهم مقامع من حديد ﴿ إلى أن قال: ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يجلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ .

وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ ففي هذه الآية، بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عباده، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه بين عباده وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقها دال على علمه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ .

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴾ وبدالهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ﴿ لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشده وأفظمه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأنهم على - الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوائها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً، ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ .

﴿وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحسبون﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا

أشرك به بالعذاب الويل .

﴿٤٥ - ٤٦﴾ ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴿ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إذا ذكر الله﴾ توحيداً له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشمئزون وينفرون، ويكروهون ذلك أشد الكراهة .

﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها، ﴿إذا هم يستبشرون﴾ بذلك، فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء . فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله شيئاً؟

ولهذا قال: ﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض﴾ أي: خالقهما ومديرهما، ﴿عالم الغيب﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، ﴿والشهادة﴾ الذي نشاهده .

﴿أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسووا فيك من لا يسوى شيئاً، وتنقصوك غاية النقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمئزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى .

قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفضل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ . وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها

من كان مات، أو قضى أن يموت في منامه .

﴿ويرسل﴾ النفس ﴿الأخرى إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها . ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم .

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، يخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتتحدث، فيرسل الله أرواح الأحياء، ويمسك أرواح الأموات .

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون ﴿ ينكر تعالى على من اتخذ من دونه شفعاء يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم . ﴿قل﴾ لهم - مبيناً جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة - : ﴿أولو كانوا﴾ أي: من اتخذتم من الشفعاء ﴿لا يملكون شيئاً﴾ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم وأعظمهم ظلماً؟

﴿قل﴾ لهم: ﴿الله الشفاعة جميعاً﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفيع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنتين . ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات . فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة . ﴿ثم إليه ترجعون﴾ فيجازي المخلص له بالشواب الجزيل، ومن

يختمون لأنفسهم بغير ذلك .

﴿ويدألهم سيئات ما كسبوا﴾ أي : الأمور التي تسوؤهم ، بسبب صنيعهم وكسبهم . ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم ، وما حل عليهم العقاب .

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿فإذا من الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين ﴾ أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته ، أنه حين يمسه ضر ، من مرض أو شدة أو كرب ، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريح ما نزل به ﴿ثم إذا خولناه نعمة منا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته ، عاد بربه كافراً ، ولعروفه منكراً ، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي : علم من الله ، أي له أهل ، وأني مستحق له ، لأني كريم عليه ، أو على علم مني بطرق تحصيله .

قال تعالى : ﴿بل هي فتنة﴾ يبلي الله به عباده ، لينظر من يشكره من يكفره . ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة ، ويشتهب عليهم الخير المحض ، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر .

قال تعالى : ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي : قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين ، لا يقرون بنعمة ربهم ، ولا يرون له حقاً ، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم العذاب .

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع : العقوبات ، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه . ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك ، ولم يكتب لهم براءة في الزبر .

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال ، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه ، أخبرهم تعالى ، أن رزقه لا يدل على ذلك ، وأنه ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده ، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق ، أي : يضيقه على من يشاء ، صالحاً أو طالحاً ، فرزقه مشترك بين البرية ، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية . ﴿إن في ذلك ، لآياتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون﴾ أي : بسط الرزق وقبضه ، لعلمهم أن مرجع ذلك ، عائد إلى الحكمة والرحمة ، وأنه أعلم بحال عبده ، فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم ، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض ، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم ، والله أعلم .

﴿٥٣ - ٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه ، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال : ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله ، مخبراً للعباد عن ربهم : ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب ، والسعي في مسأخذ علام الغيوب .

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي : لا تيأسوا منها ، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا ، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها ، فتقنن بسبب ذلك مصرين على العصيان ، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن ، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده ، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً ، من الشرك ، والقتل ، والزنا ، والربا ، والظلم ، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار . ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي : وصفه المغفرة والرحمة ، وصفان لازمان ذاتيان ، لا تنفك ذاته عنهما ، ولم تنزل آثارهما سارية في الوجود ، مألوفة للموجود ، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار ، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجاهار ، والعطاء أحب إليه من المنع ، والرحمة سبقت الغضب وغلبته ، ولكن لغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد ، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة ، أعظمها وأجلها ، بل لا سبب لها غيره ، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح ، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد ، فهلم إلى هذا السبب الأجل ، والطريق الأعظم ، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه ، والمبادرة إليها فقال : ﴿وأنيبوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم ، إذا أفردت الإنابة ، دخلت فيها أعمال الجوارح ، وإذا جمع بينهما ، كما في هذا الموضع ، كان المعنى ما ذكرنا .

وفي قوله : ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص ، وأنه من دون إخلاص ، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً . ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾ . فكأنه قيل : ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله : ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة ، كمحبة الله ، وخشيته ، وخوفه ، ورجائه ، والنصح لعباده ، ومحبة الخير لهم ، وترك ما يضر ذلك .

ومن الأعمال الظاهرة ، كالصلاة ،

والزكاة والصيام، والحج، والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا، فالتبعية لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها هو المنتب المسلم، **﴿من قيل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾** وكل هذا حدث على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم **﴿أن﴾** لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة، و **﴿تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾** أي: في جانب حقه، **﴿وإن كنت﴾** في الدنيا **﴿لمن الساخرين﴾** في إتيان الجزاء، حتى رأيته عياناً.

﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾ و «لو» في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة.

﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾ وتجزم بوروده **﴿لو أن لي كوزة﴾** أي: رجعة إلى الدنيا لكنت **﴿من المحسنين﴾**. قال تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لو زُدَّ، بيان بعد البيان الأول.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على الحق **﴿فكذبت بها واستكبرت﴾** عن اتباعها **﴿وكنت من الكافرين﴾** فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث، **﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾**.

﴿٦٠ - ٦١﴾ **﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة﴾** ليس في جهنم مثوى للمتكبرين * وينجي الله الذين اتقوا بمفارزهم لا يمسهم سوء ولا هم يميزون **﴿يخبر تعالى عن خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف،**

فالحق أبلج واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

فلهم سواد الوجوه، ولهم العذاب الشديد في جهنم، ولهذا قال: **﴿ليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾** عن الحق، وعن عبادة ربه، المفتريين عليه؟ بلى والله، إن فيها لعقوبة وخزياً وسخطاً، يبلغ من التكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله وشرعه.

ولما ذكر حالة التكبرين، ذكر حالة المتقين، فقال: **﴿وينجي الله الذين اتقوا بمفارزهم﴾** أي: بنجاتهم، وذلك لأن معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند كل هول وشدة. **﴿لا يمسهم سوء﴾** أي: العذاب الذي يسوؤهم **﴿ولا هم يميزون﴾** فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه، وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام، فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكره، وتجري عليهم نضرة النعيم، ويقولون: **﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور﴾**.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ **﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾** له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون **﴿يخبر تعالى عن عظمتهم وكماله، الموجب لخسران من كفر به فقال: ﴿الله خالق كل شيء﴾** هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن، تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كسل من قال بتقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدوم الأرض والسماوات، وكالفلاسفة بقدوم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

أَنْتَ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٠﴾
أَنْتَ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٣﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٤﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٥﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٨﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٩﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٠﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧١﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٢﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٣﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٥﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٨﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٩﴾
لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٨٠﴾

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها بوقت من الأوقات، والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله، ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه، ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة، ومعرفة بوجوه التصرفات، ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المقرر، أن الله تعالى منزه عن كل نقص في صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره، وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها.

﴿٦٣﴾ **﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾** أي: مفاتيحها، علماً

فسوروا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات يمينه، فلا عظمته حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

أي: تنزهه وتعظيمه عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ونفخ في الصور

فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون *

وأشرفت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون *

ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون، لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبتهم ورهبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسمرا فيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أو مات،

على اختلاف القولين: ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ أي:

كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا من شاء الله﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي:

قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قدمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

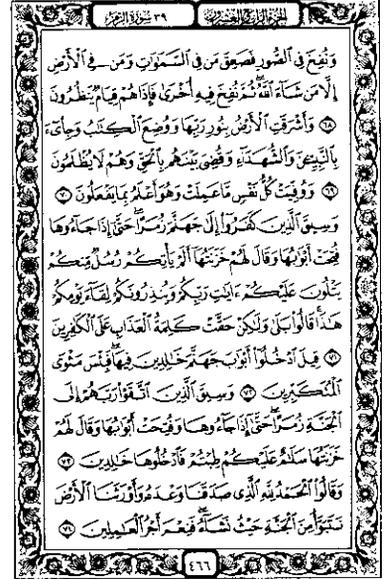
﴿وأشرفت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله عبط للأعمال، مفسد لأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحيطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك عبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحيط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخير أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدينية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويشئ عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أنغير الله

تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحيطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبدون من الشاكرين﴾ ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أنغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين .

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والخسائر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبيهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبياناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، ووجد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبيهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ف﴾ نيل لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فبئس مثوى للكافرين﴾ أي: بش المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوحيده والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تمننة لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طبتم﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنمهم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين * لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيقاً، يُضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يُدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، وبيراً بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتبخت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدمهم وقرئ لتزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعترفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر يُفسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفْؤُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ربنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبيين﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أممهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدت الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعترفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن تبعيه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطُّولِ﴾.

وإما إخبار عن نَقَمِهِ الشديدة، وعمّا يوجبها ويقضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادهما، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب المعاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

﴿٤-٦﴾ ﴿مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكْ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴿يُخَيَّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْمَرَادُ بِالْمُجَادَلَةِ هُنَا، الْمُجَادَلَةُ لِرُدِّ آيَاتِ اللَّهِ وَمُقَابَلَتِهَا بِالْبَاطِلِ، فَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الْكُفْرَانِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ، فَيُخَضَعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَلْقَى الْحَقَّ لِيُدْحِضَ بِهِ الْبَاطِلَ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَغْتَرَّ بِحَالَةِ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيُظَنُّ أَنْ يُعْطَا اللَّهُ إِيَّاهُ فِي الدُّنْيَا، دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِهِ لَهُ وَأَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا يَغْرُوكْ﴾

اليوم العظيم ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بحمالة. ﴿يَسْحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وَقَضَى بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يذكر القائل مَنْ هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴿يُخَيَّرُ تَعَالَى عَنْ كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، أَنَّهُ صَادِرٌ وَمَنْزُولٌ مِنَ اللَّهِ الْمَأْلُوهِ الْمَعْبُودِ، لِكَمَالِهِ وَانْفِرَادِهِ بِأَفْعَالِهِ، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الَّذِي قَهَرَ بَعِزَّتَهُ كُلَّ خَلْقٍ، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لِلْمُذْنِبِينَ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ مِنَ التَّائِبِينَ، ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ عَلَى مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى الذُّنُوبِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا، ﴿ذِي الطُّولِ﴾ أَي: التَّفْضِيلِ وَالْإِحْسَانَ الشَّامِلِ.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجيباً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني.

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار: ﴿فَتَحَّتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير إنظار ولا إمهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم لحرها، وأشد لعذابها.

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا مَنْ استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور.

﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنّ عليهم وهدهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾ أَي: وَعَدَّنَا الْجَنَّةَ عَلَى أَلْسِنَةِ رَسَلِهِ، إِنَّ آمَنَّا وَصَلَحْنَا، فَوْقَ لَنَا بِمَا وَعَدَّنَا، وَأَنْجَزَ لَنَا مَا مَثَّنَا. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ﴾ أَي: أَرْضَ الْجَنَّةِ ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أَي: نَنْزِلُ مِنْهَا أَي: مَكَانَ شِئْنَا، وَنَتَنَاوَلُ مِنْهَا أَي: نَعِيمُ أَرْضَنَا، لَيْسَ مَمْنُوعًا عَنَّا شَيْءٌ نُرِيدُهُ. ﴿فَنَنْعَمُ أَجْرَ الْعَامِلِينَ﴾ الَّذِينَ اجْتَهَدُوا بِطَاعَةِ رَبِّهِمْ، فِي زَمَنِ قَلِيلٍ مَنْقَطِعٍ، فَتَالُوا بِذَلِكَ خَيْرًا عَظِيمًا بَاقِيًا مُسْتَمِرًّا.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورخصها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما يبعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وترى الملائكة﴾ أي الرائي ذلك

تقلبهم في البلاد أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد، أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له.

ثم هدد من جادل بآيات الله ليبطلها، كما فعل من قبله من الأمم من قوم نوح وعاد والأحزاب من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليطمسوه، وعلى الباطل لينصروه، ﴿وإنه بلغتهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه همت كل أمة من الأمم برسولهم ليأخذوه﴾ أي: يقتلوه. وهذا أبلغ ما يكون الرسل الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هو ما يقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟ ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخروية: ﴿فأخذتهم﴾ أي: بسبب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ كان أشد العقاب وأفظمه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقتهم، فإذا هم خامدون.

﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا﴾ أي: كما حقت على أولئك، حقت عليهم كلمة الضلال التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أنتم أصحاب النار﴾

﴿٧-٩﴾ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴿يجر تعالى عن كمال

لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وأخرتهم، وفي ضمن ذلك، الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الذين يحملون العرش﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسموات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقوامهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة عليهم السلام، قال تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾.

﴿ومن حوله﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد بصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده» فهو داخل في ذلك، وهو من جملة العبادات.

﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غايته مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿ربنا وسعت كل شيء

وَسِعَ اللَّيْلُ مَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْعَرْشُ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَقْبَسُ بِيَهُمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

سُبْحَانَكَ رَبَّنَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَمْدٌ تَبْرَأُ الْكِتَابَ مِنَ آيَةِ الْعَرْشِ الْعَلِيِّ ﴿١١﴾ غَابِرٌ
الَّذِي وَقَّالَ النَّوْبُ شِدَّةَ الْعِقَابِ ذِي الْقَوْلِ لَأَلَّهُ الْآمِنُ
إِلَى الْبَصِيرِ ﴿١٢﴾ تَابِعِدُوتِ آيَةِ الْإِلَهِيِّ كَعَزَا
فَلَا تَقْرَأُ تَعْلَمُ فِي الْيَدِ ﴿١٣﴾ كَعَزَا قَلْبَهُ قَوْمٌ سُوحِ
وَالْأَخَذُوا مِنْ بَدْرِهِ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذَهُ
وَكَذَّبُوا بِالْكِتَابِ لِيَكُونَ لَهُمْ عِذْرٌ فَوَاللَّهِ كَذِبٌ
كَانَ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ رَيْبُكَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْقَارِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَقْبَسُ بِيَهُمْ وَأَقْبَسُ
بِيَهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ
الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ
أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ
﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ
الْعَذَابِ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢٤﴾
﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ
أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ
الْعَذَابِ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَصْحَابُ الْعَذَابِ ﴿٣٠﴾

رحمة وعلماً﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء، فالكون علويه وسفليه قد امتلا برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه. ﴿فاغفر للذين تابوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿واتبعوا سبيلك﴾ باتباع رسلك، بتوحيدك وطاعتك. ﴿وقهم عذاب الجحيم﴾ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب.

﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾ على السنة رسلك ﴿ومن صلح﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿من آبائهم وأزواجهم وزوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقاتهم وذرياتهم﴾ ﴿إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافة، بل من حكمتك التي أخبرتنا بها على السنة رسلك، واقتضاها فضلك، المغفرة للمؤمنين. ﴿وقهم السيئات﴾ أي: الأعمال السيئة وجزائها، لأنها تسوء صاحبها. ﴿ومن تق السيئات يومئذ﴾ أي: يوم القيامة